

أشخاصه حفرها على النحاس وطبعها على الورق ووزعها على المدن . يوسف عبدلكي في أعماله الأخيرة: ليلة ظلماء ومرآة تزيد التكوين تناقضاً

هالا محمد • منذ 3 يوليو 1995 / 00:00

بعد "مسرح بيروت"، استضافت "غاليري أتاسي" الدمشقية معرضاً ليوسف عبدلكي، ضم ثلاثين لوحة من آخر أعماله في فن الحفر الغرافور. وكل واحدة من حفريات هذا الفنان السوري المقيم في باريس، تدفعك الى لحظة المواجهة مع الاشخاص الثلاثة الذين يصطفون في اللوحات على الجدران. أشخاص حفرهم عبدلكي على النحاس، طبعمهم على ورق كرتون، وزعهم على المدن: القاهرة، تونس، عمان، بيروت، الشارقة وأخيراً دمشق. اشخاص "مطلوبون" Wanted كما اللصوص في أفلام "الوسترن، يجيء بك للتعرف اليهم من خلال المشروع فني يقض مضجعه منذ ست سنوات، وهو يحفر ويحفر، وأشخاصه لا ينتهون.

أشخاص يحاول عبدلكي اخراجهم من ذاكرته، فيتواترون ويتوزعون على المشاهد: "رجل - رجل - رجل"، "رجل - رجل - امرأة"، "أسود - رجل - أسود"، "امرأة - رجل - رجل". يتبادلون الزماكن والوضيعات داخل البروان، يغيرون وقفاتهم او يبدلون ملابسهم، أحذيتهم، اعضاءهم، عيونهم، ملامحهم، تعابيرهم، لكنهم يبقون هم هم: أشخاص غامضون، مشوقون، متعبون، ينضحون بالاعترافات، في حكاية طويل لا تنتهي ... وحين يغيب احدهم وراء الاسود، تشعر بوجوده في فراغ المكان، حيث الأسود مشحون بكتلة الشخص المستترة.

يبدع عبدلكي في مشروع "الاشخاص"، بتصميم الملابس وربط العنق والاحذية. في تواتر الابيض والاسود والرمادي. تتداخل الالوان في لوحاته، تتعكس، تتباين، تتماهي، تضيء بعضها البعض، تحفر لبعضها البعض، تتآمر. ينتهز البني الفرصة في لوحات عدة فينتحل مواصفات الأسود، يقبع في رقعة، يلبس بدلته الرسمية، سارقاً منه اوراقه الثبوتية وربطة عنقه المنقطة المنمنمة. بدخوله على الشخصية، يعكس اللون الجديد تفاصيل جديدة، كمثل تحديد موقعها الاجتماعي، مع شخصياته: تواطؤ في الدخول الى عوالمها القاسية وجعلها في متناول المشاهد ... ويشرع عبدلكي العين السوداء التي لا قرار لها، تتكر في وجوه معظم الاشخاص، ولكل منا ان يرتمي في الهوة على طريقته وكما يريد. انها العين التي اقتلعها عبدلكي في داخله وحفرها لنا، وقع في اسر عنفها. كأنه وقع في غواية الضوء على المساحة الوعرة، فلحق به ونفذ معه الى العمق، ثم تماهى معه في الابيض كما في الأسود. فالفنان يكتف تفاصيله وأجزائه ويلجأ الى تنويعات ثرية في العناصر التي تمكن من التعرف على اشخاصه "المصلوبين"، بحيث تحيل ذراعاً الى ذاكرة، زهرة الى بيئة، ربطة عنق الى موقع اجتماعي، وحذاء الى وظيفة ما. ويحيل الشكل العام الى مجرد وجود.

أشخاص يوسف عبدلكي يتصدرون البراويز، يقفون امامنا وجها لوجه. فنشعر اننا امام "صورة شعاعية"، الأبيض فيها هو ابيض العظم احياناً. فنخال أننا عريناهم ... رأيناهم في كل الاتجاهات والوضعيات والوقوفات. فيما هم متجمدون امامنا، ينتظرون بلا حراك ان نتكرم عليهم بنظرة.

الحذاء هو اللافت!

وتتميز اللوحة بتعدد المراكز التي تفتتها العين الى تكوينات صغيرة، وجه الشخص ليس اهمها دوماً. قد يكون الحذاء هو اللافت، الحذاء الذي يجمع بين العسكري والمدني والموضة والفاثنازيا. وقد تكون ربطة العنق، او المرأة الغربية التي يحملها "الشخص 46" بعيداً عن وجهه الغريب. المرأة التي تخالها في ليلة ظلماء قمراً يضيء هذا التكوين ليزيده تناقضاً. المرأة التي تحتل موقع شخص مفقود بعد ان اقتحم "الشخص 46" اللوحة، واستباح جمالية الرسم برأسه الذي يجمع بين الحصان والوحش والكلب.

وترتاح قليلاً على صفحة المرأة باحثاً في ذهنك عن الاثني الآخرين. لتسمع من هوة الاسود المحيط بالمرأة، قهقهة الافواه الثلاثة. فالشخص 46 ابتلعهم، احبهم، او تماهى معهم. لبس ربطات عنقهم المتعددة. لا يدير الشخص المرأة باتجاه وجهه، بل يسلطها باتجاهنا كـ "بروجكتور"، كضوء كاشف يؤكد لحظتنا القلقة امام اللوحة. اللحظة المترددة بين انتصار الجمال وخصوصية التقنية والتشكيل، تختزل موقفنا الفكري، الحيرة بين التمسك بالعقل او الارتواء في احضان العواطف ... كل ذلك هو انعكاس للتردد بين الوجه والمرأة، معه تهتز قراءتنا "السياسية" للمشهد، وتعرفنا على الاشخاص، فلا نجهر بأسمائهم، بل تعطي بعض تفاصيلهم فرصة أخرى للتأمل.

هكذا تتكون لحظة الفرجة من تفاصيل عابرة: نقش جميل على الساعد، منمنمة حارة حميمية، زهرة سوداء على ربطة العنق، ثم لحظة السلطنة في السادية التي يتفرد بها كل شخص من الاشخاص ساندأ رأسه الى الكرتون بقوة وصراحة تثيران الاعجاب. نعيد النظر في العين، ونبسم لها من زاوية صغيرة وجهنا. نحمي عنفها ... عنفنا. يهتز تقويمنا السياسي لموضوع اللوحة، ونضطر الى اعادة تصنيفها بالعلاقة هنا، وليس فقط بالعلاقة مع الاشخاص. ويخرجنا تلذذنا الضمني بقوة الاشخاص.

نتواطأ ولا نجاهر

يزيح عبدلكي كل الركام الحضاري الذي جمعه في كل شخص من الاشخاص، من ذوق ولون وظل وضوء وتشكيلات وانطباعات، يزيحها جميعاً ليعري الشخص الا من نفسه، الا من ضعفه. لذلك تحصل المواجهة، المواجهة مع شروط نشأة هذه الشخصية، تلك التي تحرعناها بدورنا، فنتواطأ ولا نجاهر. اننا في عالم الداخل السري، المضطراب. وجوهر الموقف النقدي اللاذع في العمال عبدلكي هو لحظة اعتراف الاشخاص بمتعة السلطة. بمتعة الوحشية، ببذورها الآتية من الطفولة والمجتمع، المتمثلة في نقطة، نظرة، تفصيل تفتته العين ... في صغائر الاشياء، وربما أرقها وليس فقط في تجلياتها العامة والكبيرة.

في "اشخاص 21" تنزاح محفورة على جسد، عن جزء من الجسد، محتضنة وجهاً شيطانياً يتواتر موقعه على الثوب الذي تلبسه شخصية ما هي بذكر ولا بأنثى... بل خليط بين الآدمية والحيوانية. تمد الشخصية لسانها الأبيض كأنها فتحة شقها عبدلكي في الوجه الأسود الصغير. بقعتان بيضاويتان غير متناظرتين. وقعت احدهما في حفرتها وانزاحت الثانية عنها خارج الرأس، فأشر خط ابيض المحيط الخارجي لهذا الرأس، راسماً حدود انتشار العنف لدى الشخصية. والى اليمين شخص ثان. يلبس خطوطاً مستقيمة. على صدره "نیشان" منقط وتعلق باحدى أصابعه "ورقة لعب". يغيب وجهه بين الشر والخيال والجنوب والجنوح. على يمينه امرأة هي "الشخص الثالث"، طار أحد اقراطها البيضاء الدائرية الفارغة في الفراغ الأسود المحيط برأسها الأبيض. هكذا يتنقل الفنان بين الخيال والفانتازيا والذاكرة والموضوع والشكل، ويحمل التفاصيل الصغيرة - كهذا القرط الطائر - كل نشوة السلطة وعنفها، في تحقيق الشخص الذي يرسم.

وبعد ان تعرف يوسف عبدلكي على شخصياته جيداً عبر سنوات من العلاقة اليومية الحميمة معها، اختلفت علاقته بها قليلاً، فترجع عن بعض عدائيتها تجاهها وأقلع عن حفرها في بعض اللوحات ليلونه بالباستيل . فبدت أقل خطورة وتحولت من فكرة خطيرة الى لعبة مؤذيه.

يوسف عبدلكي

* ولد يوسف عبدلكي في مدينة القامشلي سورية عام 1951.

* حصل على اجازة من كلية الفنون الجميلة في دمشق عام 1976. ثم على دبلوم في فن الحفر من المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة في باريس 1986. ونال دكتوراه في الفنون التشكيلية من جامعة باريس الثامنة عام 1989.

* أقام تسعة معارض فردية. واشترك في عشرات المعارض الجماعية منذ عام 1973. اقتنى المتحف البريطاني اثنين من اعماله.

* معروف ايضاً كرسام "كاريكاتور". ويعمل في مجالات غرافيكية متعددة كتصميم الملصق، الغلاف، الرسوم الساخرة، الرسوم التزيينية.